## تثاقف أم تصادم؟

# سؤال الهُوية في العالم العربي

كثر الحديث في الفترة الأخيرة عن مسألة الهوية في العالم العربي، سواء كانت وطنية أم قومية أم إسلامية، وسؤال الهوية أثار مسألة الثوابت والمرجعيات التي يُفترض أن تؤطر العمل السياسي للدولة والأحزاب، فلا ثوابت ومرجعيات إلا إذا تم التفاهم على مسألة الهوية، حيث أصبحت الهوية أهم عوامل الاستقطاب والتعبئة والحشد بعد تراجع الأيديولوجيات.

إبراهيم أبراش*

وحيث أن الواقع العربي مازوم بالفكر والفكر مازوم بالواقع، فإن أهم تجليات الأزمة الطافية على السطح هي مسألة الهوية، سواء تعلق الأمر بالعراق أو السودان أو فلسطين أو لبنان، وإن كانت مسألة الهوية أخذت طابعا صداميا ودمويا أحيانا في هذه البلدان، فهي كامنة ومحرضة وقابلة للتفجر في بلدان أخرى.

وعليه فإن سؤال الهوية يُطرح اليوم من باب الإشكال أو الأزمة، وإن تزيا بزي التحول الديمقراطي، فإنه إشكال مزدوج. فهناك التهديد الخارجي الذي يواجه الهوية العربية والإسلامية من طرف العولمة الثقافية، وهناك التهديد الداخلي الناتج عن التعارض والتصادم ما بين الهويات وبعضها البعض حتى داخل الدولة القطرية – الوطنية-.

إن كانت العولمة الثقافية تشكل تهديدا حديثا – لا يقتصر على الهوية العربية أو الإسلامية بل كل الهويات والثقافات الوطنية عبر العالم-، فإن "التعدد الهوياتي" سواء أخذ طابع التعايش السلمي أو الإكراهي، أو أخذ طابع التصادم، قديم في عالمنا العربي، ويمكن القول بان اتفاقية سايكس- بيكو لعام ١٩١٦ هيأت الجغرافيا السياسية التي أفسحت المجال لظهور الدولة الوطنية، هذه بدورها أنتجت هوية وطنية تمايزت من جانب عن الهوية القومية العربية، المتعثرة نشأة، والمصادرة سياسيا سيرورة، وتمايزت أيضا عن الهوية الإسلامية المسيسة، الضعيفة آنذاك والصاعدة حديثا.

كانت مسالة الهوية وطوال أكثر من خمس عقود كامنة وراء كثير من الإشكالات التي شغلت الفكر السياسي العربي.. تجلت مسألة أو إشكالية الهوية خلال هذه المرحلة في التنازع بين مكونات -الرباعية-: الهوية القومية والهوية الأممية الاشتراكية والشيوعية والهوية الإسلامية والهوية الوطنية، مع اختلاف الترتيب حسب الأهمية والأولوية لكل منها من بلد لآخر ومن فترة زمنية لأخرى.

مثلا، الهوية الدينية السياسية والتي كانت ممثلة بجماعة الإخوان المسلمين وحزب التحرير شكلت رؤية مغايرة للهويتين القومية والوطنية السائدة، إلا أن الحضور السياسي لهذين الحزبين كان محدودا، وحتى بالنسبة للهوية الأممية فقد كانت غير واضحة المعالم وفي كثير من الحالات كانت أوهاما أو حلما عند بعض الناشطين في الأحزاب الشيوعية. وللمفارقة فان كثيرا من الشيوعيين العرب حاولوا إيجاد حالة من المصالحة ما بين الشيوعية والدين بل كان بعضهم يوظف آيات دينية في خطبه ويبدأ بالبسملة، أما الهوية الوطنية فقد كانت تُلعن علنا وتُؤسس وتُغذى فكريا خفية، وأحيانا كان الفكر والمفكرون المعبرون عن الهوية الوطنية القطرية يصنفون كأعداء للوحدة والتحرر وأحيانا كعملاء للاستعمار.

مع أنه في الوقت الذي كانت ترتفع فيه شعارات الوحدة العربية والهوية القومية كانت الأنظمة الثورية والقومية ترسخ الإقليمية من حيث تدري أو لا تدري.

أدى انحراف الفكر القومي والثوري، وخصوصا الحاكم، الى ترسيخ مركزية الدولة القطرية ونظام الحزب الواحد وتضخيم الأجهزة الأمنية وتشديد الرقابة على الحدود والحد من حرية تنقل الأفراد بين الأقطار العربية وقمع حرية الفكر الخ، الأمر الذي أدى الى تعزيز مكانة القطرية، بل وما هو أكثر خطورة، أن هذه الأنظمة والحركات أحيت وعززت الهويات الطائفية والعرقية، أي هويات ما قبل الدولة وما قبل الوطنية، ذلك أنه عندما ينكشف زيف الايديولوجيا والشعارات التي اعتمد عليها الحاكم للوصول للسلطة، وبفقد الحاكم شعبيته، أخذ يلجأ لطلب الحماية من أبناء طائفته أو قبيلته، وهذا لا يكون بدون مقابل، فيغدق عليهم الهبات والامتيازات والمناصب الرفيعة وخصوصا في المؤسسة العسكرية والأمنية، الأمر الذي يستثير المكونات الأخرى للمجتمع، فتكون الطائفية.

ما جعل مسالة الهوية إشكالا، هو أن الدولة العربية- وبشاطرها في ذلك كثير من دول العالم الثالث- لمرحلة ما بعد الاستقلال ولدت ولادة قيصرية ومازومة في شرعيتها حيث جاءت خارج التطور الطبيعي للمجتمعات السياسية كما يُعرفه علم السياسة وكما شهدته المجتمعات الأخرى. فلا هي دولة-أمة ولا هي وريثة لدولة الخلافة ولا هي دولة عقد اجتماعي ولا هي دولة طبقية مهيمنة بالمفهوم الماركسي، بل أقحمت مؤسسة الدولة إقحاما لاعتبارات ومصالح استعمارية. ولكل ذلك كانت المنطقة العربية مجالا خصبا لتوالد الأفكار والنظريات لتاطير مجتمعات لا تجربة سابقة لها بحكم نفسها بنفسها.

ومن جهة أخرى، وحيث ان عددا من الدول العربية عاشت مرحلة حركة التحرر ضد الاستعمار ومن يواليه من قوى داخلية، بما هيمن على هذه الحركات من فكر -ثوري- فقد حاول القوميون السياسيون في هذه المرحلة بأن يكونوا توفيقيين -بالإكراه تارة وبالصمت تارة أخرى- ليجمعوا ما بين الفكر القومي والفكر الاشتراكي والفكر الديني أحيانا دون وضوح الخطوط الفاصلة لكل منهم.

فالمرحلة الناصرية كانت بدايتها ذات صلة بالإخوان المسلمين، ثم قطعت معهم لصالح الفكر القومي ثم تحولت أو مزجت الفكر القومي بالفكر الاشتراكي. والأنظمة والحركات التي عرفتها سوريا والعراق واليمن والسودان.. الخ، كانت خليطا ما بين الفكر القومي والفكر الاشتراكي مع توظيف للدين بشكل أو آخر.

ومن المعروف أن كل هذه المحاولات التوفيقية قد فشلت، ليس لأن فكرة المزج خاطئة، فهي ما يجب أن يكون، بل لعدم قدرة تلك القوى السياسية على خلق الترابط الجدلي الحقيقي بين هذه الهويات فكريا، وعدم قدرتها أو عدم رغبتها في تفعيل مبدأ المساواة بين مكونات المجتمع على أساس ديمقراطي.

وهكذا ونظرا لهيمنة الأيديولوجيا أو الاستبداد أو كليهما، لم يُفصح إشكال الهوية عن ذاته دائما كخلاف هوياتي محض، بل أخذ تجليات سياسية وحزبية وطائفية، وفي أحايين كان كامنا وراء عديد من الخلافات والصدامات التي استنزفت جهد المفكرين وإمكانيات الأمة وعكست ما يمكن أن نسميه أزمة الدولة القطرية -الوطنية-. وعندما هبت رياح الديمقراطية من الغرب أضيفت إشكالات الأخذ بديمقراطية موجهة إلى إشكالات الهوية، وتداخلت الأمور بحيث ركب متطرفو بعض الهويات والثقافات المضادة موجة الديمقراطية وأرادوا أن يحققوا بادوات تُنسب للديمقراطية ما لم يستطيعوا تحقيقه بوسائل أخرى، ووجد الديمقراطيون الحقيقيون أنفسهم أمام مهمة معقدة ومزدوجة وهي حل مشكلة التصارع الهوياتي من جانب وبناء أسس الديمقراطية التي تقوم على مفهوم المواطنة والتعددية الثقافية والاعتراف بالآخر وتحفظ وحدة الوطن والشعب، من جانب آخر. ونعتقد انه لو وجدت الديمقراطية مكانا لها خلال العقود السابقة في ثقافة أصحاب الهويات المتعددة ونجحت المجتمعات العربية في تأسيس أنظمة ديمقراطية حقيقية لحلت إشكالات الهوية. في الوقت الذي كان فيه المفكرون العرب منشغلين بالإشكالات المرتبطة بالدولة والحكم والهوية، دهمتهم العولمة وشكلت تحديا غير مسبوق، وعملت الولايات المتحدة على توظيف الديمقراطية الموجهة كإحدى أدوات العولمة الثقافية، هذه الأخيرة التي أدت لتفجر النزاعات الإثنية والطائفية من حيث كان يُفترض أن تؤدي لتذويب الهويات وجسر الفجوة بين الثقافات. ومن الملاحظ أن تأثير العولمة على الهويات لم يكن واحدا، ففي الوقت الذي شعرت فيه الثقافات القوية -والهوية جزء من الثقافة - بتهديد العولمة الثقافية الموجهة أمريكيا، فإن الهويات الصغيرة والتي كانت مهمشة وخصوصا في العالم العربي استقوت بالعولمة وبمن يقف وراءها، والسبب انه تم تسييس العولمة الثقافية بشكل كبير واستعملتها أمريكا كعصا ضد أصحاب الهويات التي يمكنها تهديد مصالحها وثقافتها. وحيث ان العالم العربي بهويته وثقافته وتاريخه وموقعه وخيراته كان في بؤرة الاهتمام الأمريكي، فقد عملت أمريكا على تعزيز الثقافات الفرعية والهويات الصغيرة ليس حبا بها بطبيعة الحال ولكن لإضعاف الهوية العربية والإسلامية كهوية موحدة أو قادرة على توحيد الأمة العربية. وهناك بعد آخر، وهو تحول مكونات ومصادر الثقافة وبالتالي الهوية.

فمن التبسيط المتناهي للأمور التعامل اليوم مع مفهوم الهوية انطلاقا من التعريف أو السمات الكلاسيكية لها.

فهذا التعريف كان كافيا بحد ذاته عندما كانت المجتمعات تتحكم بالتنشئة الاجتماعية، ولم يكن للمؤثرات الخارجية كبير تأثير على البنية الثقافية. كما ان وسائل التعبير عن الهوية اليوم ليست هي وسائل عصر ما قبل العولمة. ففي ظل الثورة المعلوماتية، وهذا التدفق الهائل للأفكار والقيم وأنماط السلوك عبر الفضائيات وشبكات الانترنت بأساليب مشوقة ومغرية وسهلة الوصول إليها، لم تعد النظم السياسية والاجتماعية ولا البنى التقليدية ولا الموروثات بقادرة على التحكم بنقاء الهوية. وفي المقابل، فإن هذه التقنيات الحديثة مكنت الهويات من التعبير عن نفسها بشكل أفضل من السابق، وعليه يمكن أن نزعم أن مشتملات الهوية، والحفاظ عليها، والتعبير عنها، لم يعد خاضعا لمحددات وطنية ومحلية خالصة.

لا مجاحة اليوم بأن المجتمع العربي: ثقافة وقومية ودولاً قطرية، يشهد إعادة نظر شاملة إن كانت العوامل الخارجية لها نصيب الأسد فيها، فإن عجزه خلال عقود عن حل إشكالاته، كان له دور مهم في مأزقه الحالي. إعادة النظر هذه وخصوصا ما يمس منها الهوية "التوازنات الطائفية والعرقية" أو ما يتعلق بالتوازنات السياسية، يحتاج الى فكر سياسي متجدد لا يقطع مع تراثه ولكنه يستوعب المستجدات. وفي هذا السياق فإن تصادم الهويات في العالم العربي لا يصب في مصلحة الأمة العربية ولا في مصلحة الدولة الوطنية. وهو بطبيعة الحال يتعارض مع روح الإسلام كدين تعايش وتسامح. والحل هو تثاقف الهويات.

وهناك كثير من نقاط الالتقاء بينها وخصوصا إنها تعايشت لقرون على نفس الأرض وتشاطرت الآلام المشتركة، ولو تم قطع الطريق على التدخلات الخارجية فإن إمكانية الالتقاء بين الوطني والقومي والإسلامي أمر ممكن، التثاقف الهوياتي يصبح ضرورة ومصلحة لمواجهة التهديد الخارجي من جانب وتجنب نار الحرب الأهلية من جانب آخر.

* أستاذ فلسطيني في كلية الازهر بغزة.

# زينب الغزالي.. من القبعة إلى الحجاب

■ زينب الغزالي رحمها الله تعالى امرأة ينطبق عليها قول رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم :"خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا"، فقد كانت قبل التزامها بالدين الإسلامي شعلة متوقدة، ولساناً طليقاً ينطق بغير الحق ويدافع عنه، اعتقاداً منها أنَّه الحق، ثمَّ ما لبثت أن أبصرت النور، فأعطت في الالتزام أضعاف ما أعطت في غيره، وهي إلى اليوم من أركان العمل الإسلامي النسائي في الوطن الإسلامي الكبير، فقد أسست لهذا العمل وعملت له بكلّ إخلاص وتفان، ومازالت.

أ.علي محمد الغريب

## نسيبة بنت كعب

وُلدت زينب محمد الغزالي الجبيلي في ٢ يناير١٩١٧م بإحدى قرى محافظة البحيرة بمصر، وقد كان والدها من علماء الأزهر الشريف، فأنشأها على حب الخير والفضيلة، ونمَّى فيها استعدادها الفطري للقيادة والجرأة في الحق، والصدق في الحديث، والوقوف ضدَّ الظلم، وكان يسمِّيها "نسيبة" تيمناً بالصحابية الجليلة نسيبة بنت كعب المازنية الأنصارية، التي اشتهرت بالشجاعة، وتُعدُّ من أبطال المعارك، وقد أبلت بلاءً حسناً يوم أُحد، وجُرحت اثني عشر جرحاً بين طعنة وضربة سيف، وكانت ممَّن ثبتوا مع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم حين تراجع الناس.

عندما أراد والدها أن يُشبِّهها بهذه الصحابية الجليلة، إنَّما كان يرمي إلى تعويد ابنته الصغيرة على حبِّ الجهاد، والذود عن الدين الإسلامي، وعن سيرة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وعن صحابته الكرام، فصنع لها سيفاً من الخشب وخطَّ لها دائرة على الأرض بالطباشير، وقال: قفي واضربي أعداء رسول الله، فكانت تقف في وسط الدائرة، تضرب يميناً وشمالاً، من الأمام ومن الخلف، وعندما يسألها والدها: كم قتلت من أعداء رسول الله وأعداء الإسلام؟ فتقول: واحداً، فيقول لها: اضربي ثانية، فتطعن الهواء وهي تقول: اثنان، ثلاثة، أربعة، وهكذا.

لم تدم طفولتها السعيدة بعد وفاة والدها وراعيها ومحفِّزها على الدفاع عن الدين وصيانته وهي في سنِّ العاشرة، فاحسَّت بضياع أحلامها وآمالها، ثمَّ انتقلت ووالدتها إلى القاهرة للعيش مع إخوتها الذين يدرسون ويعملون هناك. وعندما رغبت في إتمام دراستها اعترضها أخوها الأكبر محمَّد الذي قال لوالدته عندما حدثته في هذا الشأن: إنَّ زينب قد علَّمها والدها الجراة، وعلَّمها ألاَّ تستمع إلاَّ لصوتها ولعقلها، ولذلك لا أوافق على إتمام تعليمها مادمت وليها، ويكفي ما تعلَّمته في مدارس القرية.

كان موقف محمَّد أوَّل تغيير في حياتها بعد وفاة والدها، ولم تكن راضية عن هذا الموقف، وكانت والدتها تقول لها: عليك بإطاعة أوامره لأنَّه في مكان والدك.

في وسط هذه الحيرة المبكِّرة ساعدها أخوها علي، وهو الأخ الثاني، على الاستمرار على موقفها، وكانت قناعاته تتمثَّل في أنَّ تعليمها يقوِّم أفكارها، ويصوِّب رؤيتها للأشياء والناس، واقتنى لها العديد من الكُتب التي ملأت حياتها وأنستها في وحدتها، أهمها كتاب لعائشة التيمورية عن المرأة حفظت أكثر مقاطعه.

لم تكتف بالكتب والقراءة الحرَّة، فخرجت ذات يوم من منزلها بحي شبرا وعمرها آنذاك اثنا عشر عاماً، وراحت تتجول في الشوارع، فوقعت عيناها على مدرسة خاصة بالبنات، فطرقت بابها، وعندما سألها البوَّاب عن غرضها، قالت له: جئت لمقابلة مدير المدرسة. فسألها: لماذا؟ فقالت وهي واثقة من نفسها: أنا السيدة زينب الغزالي الشهيرة بنسيبة بنت كعب المازنية، ولديَّ موعد معه. فأدخلها البوَّاب وهو يتعجَّب من طريقة هذه الفتاة الصغيرة.

دخلت مكتب المدير وبادرته قائلة في طريقة آلية: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. أنا السيدة زينب الغزالي ولقبي نسيبة بنت كعب المازنية؛ فنظر إليها الرجل وتصوَّر أنَّ بها مساً من الجن من طريقة إلقائها، ثمَّ قال لها: ماذا تريدين يا سيدة زينب أو يا سيدة نسيبة؟ فقصَّت عليه قصَّتها وموقف شقيقها الأكبر من تعليمها، وطلبت منه أن يقبلها طالبة في مدرسته، وعندما سأل عن والدها وأخيها عرفها وعرف أسرتها، وعرف جدَّها تاجر الأقطان المشهور، ووالدها الأزهري المعروف. أعجب مدير المدرسة بذكاء الفتاة وجرأتها وأجرى لها اختباراً في بعض الأسئلة، فأجابته بكلِّ ثقة، فطلب منها إحضار أخيها علي الذي يؤيِّد تعليمها ليسجِّلها في المدرسة. وبعد شهرين من انتظامها في الدراسة أجرى لها اختباراً ألحقها على إثره بالفصل التالي، ثمَّ انتقلت بعده إلى الصف الأول الثانوي.

بعد حصولها على الثانوية طالعت في إحدى الصحف أنَّ الاتحاد النسائي الذي ترأسه هدى شعراوي ينظِّم بعثة إلى فرنسا، تتكوَّن من ثلاث طالبات، الأولى في زينة المرأة، والثانية في تربية الأطفال، والثالثة في الحقوق للدفاع عن حقوق المرأة. ذهبت من فورها إلى مقر الاتحاد النسائي والتقت هدى شعراوي، وقصَّت عليها قصَّتها مع أبيها وأخيها المتعنِّت، فأظهرت هدى شعراوي الألم والرثاء لحالها، ثمَّ سجلتها ضمن الطالبات الثلاث على الفور وراحت تقدِّمها لرواد الجمعية وتتحدَّث عنها أمامهن، وتدعوها للترحيب بهن، وكانت تطلب منها أن تخطب فيهن، فكانت تفعل، فهي خطيبة مفوَّهة، تلقَّت فنون الإلقاء والخطابة عن والدها رحمه الله.

بعد ما تحدد موعد سفر أعضاء البعثة في غضون شهر من إعلانها رأت زينب والدها في منامها وهو يطلب منها عدم السفر إلى فرنسا ويقول لها: إنَّ الله سيعوِّضك في مصر خيراً ممَّا ستجنيه من البعثة، فقالت له: كيف؟ قال: ستزين، ولكن لا تسافري لأنَّني لست راضياً عن سفرك. فوجئت هدى شعراوي بهذا القرار فقامت واحتضنت زينب وهي تبكي وتضغط على يديها وتقول: لماذا يازينب؟ لماذا يازينب؟.. أنت أمل من أمالي، وحلم من أحلامي، فقصَّت عليها قصَّة الرؤية فقالت: من الأحلام ما يتحقق ومنها ما لا يتحقق، لا تضيِّعي الفرصة من يديك. فقالت لها زينب الغزالي: ما دام والدي قد أمرني فلن أخالف أمره. ثمَّ راحت تعمل من خلال الاتحاد النسائي الذي كانت إحدى عضوات مجلس إدارته البارزات، برغم اعتراض بعض العضوات على أسلوبها الذي لا يخلو من النبرة الإسلامية، لكن هدى شعراوي تمسَّكت بها وكانت تعدُّها لتكون خليفتها، وترى فيها ما يمثِّل شيئاً ما بالنسبة لأحلامها وآمالها!

خاضت زينب الغزالي حروباً كثيرة ضد الأزهر الذي كان يكافح الاتحاد النسائي ويخشى من قناعات زينب بهدى شعراوي ومشروعها من منطلق إسلامي، وهو ما يمثِّل فخاً لكثير من الفتيات، فكان الأزهر الشريف أوَّل مؤسسة تنبَّهت لهذا الأمر ووقعت في تصادم حاد وعنيف مع الاتحاد النسائي، وأقام نتيجة لذلك العديد من اللقاءات والمنتديات الثقافية في بعض الكليات والمعاهد الأزهرية، ودعا فيها الاتحاد النسائي للمناظرة، فكان أن انتدبت هدى شعراوي ثلاث فتيات لتمثيل الاتحاد في هذه المنتديات هنَّ: زينب الغزالي، سيزا نبراوي، حواء إدريس ابنة خال هدى شعراوي.

وفي أحد هذه اللقاءات تحدَّث بعض شيوخ الأزهر عن دعوة هدى شعراوي، وراحوا يؤكِّدون أنَّها تريد الخروج بالمرأة المسلمة من محيط التعاليم الشرعية، فوقفت لهم زينب بالمرصاد مدافعة ومؤكدة أنَّ هدى شعراوي تريد الارتقاء بالمرأة المسلمة، وتنمية عقلها وفهمها، ورؤاها، والسعي من أجل الحصول على حقوقها.. إلى آخر هذه الشعارات الرنَّانة الزائفة، التي كانت تؤديها بكلِّ صدق وإخلاص وأنبهار حقيقي من وجهة نظرها آنذاك!

□ زينب الغزالي

وقد حدث ذات يوم أنَّها تصدَّت لعشرة من مشايخ الأزهر، فهاجمتهم وانتصرت لأفكار هدى شعراوي، فما كان منهم إلا أن طلبوا من الشيخ عبد ربه مفتاح رئيس قسم الوعظ والإرشاد بالأزهر منعها عن الوعظ ، لكنَّ الرجل كان ذا عقل راجح وعلم غزير، فقال لهم: لقد واجهَتْ عشرة من علماء الأزهر ولم يستطيعوا إقناعها، ونحن إذا أوقفناها عن الوعظ أنبأ هذا عن فساد رأينا وصدق ما تدعيه، لذلك أرى مواجهتها. فقال أحد العلماء واسمه الشيخ محمَّد النجَّار: أنا لها !

وحينما ذهبت في اليوم التالي بصحبة رفيقتيها سيزا وحواء وجلسن، جاء الشيخ وقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، والسلام عليكم أيتها الفتاة التي تناقش علماء الأزهر وتدافع عن السيدة الفاضلة هدى شعراوي وجمعيتها وأغراضها.

فوقفت زينب الغزالي وقالت له: بداية أنا زينب الغزالي الجبيلي، فعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. ثمَّ بدأت تحاضر في الفتيات، فشدَّت انتباه الشيخ، فقال لها بعد فراغها من المحاضرة حين همَّت النساء بالخروج: هل تسمحين يا ابنتي أن أحدِّثك دقائق في مجال الدعوة الإسلامية؟

فقالت له: سمعاً وطاعة.. تفضَّل. جلس الشيخ ثمَّ رفع يديه إلى السماء، ودعا الله عزَّ وجل قائلاً: اللهم إني أسألك بأسمائك الحسنى، وبكتابك الذي انزلت وبسنَّة نبيك الذي أرسلت، أن تجعلها للإسلام، إنَّك على كلِّ شئ قدير، أسألك بالقرآن أن تجعلها للإسلام، وصلَّ اللهم على سيدنا محمَّد. ثمَّ دمعت عيناه فتأثرت زينب بهذا الموقف ودمعت هي الأخرى وحاولت إخفاء دموعها عن الشيخ ثمَّ سألته: لماذا تعتقد أنَّني لست مع الله، وأنا أصلي وأصوم وأقرأ القرآن وساحجُّ بيت الله حين تيسِّر أموري بمشيئته، كما أتمنى أن أستشهد في سبيل الله. فقال الشيخ النجَّار: أحسبك كذلك ، واستمر في دعائه ثمَّ قال لها: هل تعودين إلى هدى شعراوي بعد خروجك من هنا أم ستبقين مع الله ورسوله؟ فقالت: وأنا مع هدى شعراوي أعتبر نفسي مع الله ورسوله. فقال لها: هل تعاهدينني على نُصرة الحقِّ؟ فعاهدته، واستمرت علاقتها بالشيخ النجَّار الذي أوضح لها أموراً كثيرة في الدين كانت تجهلها، وكان لها رأي مخالف فيها قبل معرفتها بالشيخ، وتفتَّحت عيونها على قضايا كثيرة لم تكن تعلمها من قبل.

وفي أحد الأيام دخلت مطبخ أسرتها لمتابعة الطبَّاخ أثناء إعداد الغداء، فانفجر موقد الغاز فيها، وقد طالت النار وجهها وكلَّ جسدها، وحينما حضر الطبيب وقام بالإسعافات اللازمة، طلب منها عدم الحركة، والنوم في السرير، وأخبر أخوتها بضرورة سفرها إلى الخارج للعلاج، لكنها اعترضت على السفر وتعرية جسدها أمام الأغراب، فكان الطبيب يأتي كلَّ يوم لعلاج الجروح والحروق، لكنَّ حالتها كانت تسوء كلَّ يوم، وفقد الطبيب والأسرة الأمل في شفائها، وقال لأخيها: إنَّها ستموت ولن تخرج من محنتها هذه. فاتصل أخوها بأهلهم في القرية وأخبرهم بقول الطبيب، وعمَّ الحزن المنزل دون إخبارها بما قاله الطبيب، لكنَّها سمعت صوت أخيها وهو يتحدَّث في الهاتف، برغم حرصه الشديد على عدم سماعها المحادثة، فكانت تتيمَّم وتجتهد في العبادة استعداداً للموت، وقد دعت الله سبحانه وتعالى قائلة: "ياربِّ إذا كان ما وقع لي عقاباً لانضمامي لجماعة هدى شعراوي، فإنَّني قررت الاستقامة لوجهك الكريم، وإن كان غضبك عليَّ لأنَّني ارتديت القبعة، فسأنزعها وسأرتدي حجابي، وإنِّي أعاهدك وأبايعك ياربي إذا عاد جسمي كما كان عليه، سأقدِّم استقالتي من الاتحاد النسائي وأؤسس جماعة للسيدات المسلمات لنشر الدعوة الإسلامية ونعمل على عودة المرأة المسلمة إلى ما كانت عليه صحابيات رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وأدعو لعودة الخلافة الإسلامية، وأعمل من أجلها وأجاهد في سبيل الله ما استطعت".

سبحان الله.. ما أروع الإخلاص في الدعاء، وصدق التوبة والأوبة إلى الله تعالى، واليقين من قدرته سبحانه على ما يشاء. لم تكن زينب تتوقع استجابة دعائها بمثل هذه السرعة التي وصفتها بأنَّها كانت نتيجة مذهلة لا يمكن معها لقدرتنا العقلية المحدودة أن تعي المقدرة الإلهية التي تحوِّل الأشياء إلى نقائضها، فبمجرَّد أن جاء الطبيب في موعده المعتاد، ورفع اللفائف حتى ذُهل وذُهلت وذُهل جميع الحاضرين وقد سألها الطبيب من فرط دهشته: من أنت؟؟!

فرح جميع من بالبيت بشفائها وتوجَّهوا إلى الله يلهجون بالشكر والحمد، وقد رفض الطبيب تقاضي أية أتعاب بعد ما رأى بأمِّ عينيه هذا التحوُّل المفاجئ، وراح يردد: سبحان الله.. سبحان الله، إنَّ الله على كلِّ شئ قدير.

عندما تعافت زينب وعاد جسدها كما كان قبل الحرق، أوَّل شئ فعلته كتبت خطاباً لهدى شعراوي، أعلنت فيه استقالتها من الاتحاد النسائي، ثمَّ تخلَّت عن جميع ملابسها الموجودة، وطلبت من أخيها جلباباً فضفاضاً، وخماراً ووضعته على رأسها بدلاً من القبعة.

وربَّ ضارة نافعة، فقد كان في احتراقها كلُّ الخير، وقد تحوَّلت هذا التحوُّل الكبير وغيَّرت أفكارها واتجهت بها إلى نصرة الدين الإسلامي والالتزام بالحجاب الإسلامي.

تلقَّى علماء الأزهر - خصوصاً الشيخ النجَّار - نبأ تحوُّلها بالبشر والفرح، ثمَّ توالت أنشطة زينب الغزالي من يومها، وقد بدأتها عام ١٩٣٦م حين أسَّست "جمعية السيدات المسلمات" تدعو إلى الله على بصيرة، وكانت محضناً خصباً ترعرعت فيه الكثيرات من الكوادر النسائية الإسلامية اللائي عملن للدعوة منذ نعومة أظفارهن دون مرورهن بالدهاليز التي سلكتها المربية الفاضلة زينب الغزالي بحثاً عن كوَّة النور، التي هديت إليها بعد معاناة وإخلاص وجدَّ في البحث، ثمَّ أهدت عصارة تجاربها للقادمات من بعدها، تحذِّرهن من الانخداع بمعسول الكلام وبريق الشعارات التي خاضت فيها يوماً وقد أنجاها الله بعد ما كادت تهلك!

كانت زينب الغزالي علامة بارزة من علامات فضح هذه الدعاوى الباطلة، وكانت بذرة صالحة ولدت مع دعوة خبيثة رضعت لبانها فلم تستسغه وانقلبت عليه سالكة طريق الحقِّ تكافح هذه الدعوة وتلاحقها، حتى شحب عودها واصفرَّ لونها.

تحوَّلت زينب حينما ذاقت حلاوة الإيمان، بعد ما جرَّبت علقم الشعارات الرنَّانة، وبعد ما تأكَّدت من سعة الإسلام الصالح لكلِّ زمان ومكان، وتأكَّدت من ضيق هذه الأباطيل وعجزها عن استيعاب الذين ما زالوا يروِّجون لها، ويدافعون عنها، وينفخون فيها لإحيائها، بعد ما انكشفت حقيقتها، وخبت نارها، ووهنت وشاخت أمام شرعة الإسلام المتدفقة بالحيوية والصلاحية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

كانت هذه هي رحلة زينب الغزالي - الشاقة والمضنية - من القبعة إلى الحجاب، استدبرتها لتستقبل مرحلة أخرى أكثر معاناة، ويا لها من معاناة يزيل لفح هجيرها نسمة من نسمات المسلمات بقيادة زينب الغزالي، انهالت عليها الابتلاءات بالتضييق في الرزق تارة، وبالمعتقلات والملاحقة تارة أخرى، فكانت تستقبل هذه المحن بروح عالية مدركة أنَّ ذلك من سنن الدعوات الصالحة، من أجل تنقيتها من خبثها، فثبتت - بغفر الله لها - في وجه المحن جميعها، ثمَّ عادت بعد سنوات طويلة من الظلم والهوان حاملة دينها بين يديها، وقد أودعته قلبها حتى تسلِّل إلى جميع خلاياها، ينهل منه ومن سيرتها العطرة محبُّوها من كلِّ مكان إلى يومنا هذا. فاللهمَّ أجزها خير الجزاء وتقبَّل عملها خالصاً لوجهك الكريم.